فلسفة طاغور الأخلاقية :

مشكلة الشر في ضوء وحدة الوجود

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

إن اعتناق طاغور عقيدة وحدة الوجود لم يضف جديداً للفكر الهندي ، بل هو أخذ من القديم ، وترديد لنفحات حكماء السابقين . وإن تدعيمه هذه العقيدة بتوضيح ما يكتنفها من إبهام ، وما يشيع فيها من إشكال ، أو بثه لها في قالب شعري يجدد من حيويتها ، ويذيعها بين العام قبل الخاص ، ولئن كان فيه شيء من الجدة فإنها لا تظهر طاغور إلا بمظهر المدافع عن تراث ديني عتيق . وإنما الذي يفصح عن ابتكاره الفكري ، هو استعانته بهذه العقيدة في تدعيم المبادئ الأخلاقية ، وتفسير ما يشوب الحياة الإنسانية من شر ، وما ينتابها من سوء .

وإن كان في تصور تجلي الله في مكونات الوجود في صورة قانونها العام شيء من البراعة الفكرية ، فإن تصور حلول الله في الإنسان على صورة القانون الأخلاقي ، ينم عن مهارة روحية فائقة ، تظهر قدرة طاغور الملائكية في كيفية إحكام ربط الإنسان بالله ، إذ جعل أفضل ما في الإنسان مستمداً من الله ، واتخذ من أنبل ما يحتويه كيانه من قيم روحية سبيلا لتحقيق اتحاده بخالقه اللانهائي . وإن كان هناك كثير من البشر يعصي أوامر القانون الأخلاقي ، الذي ليس إلا قبساً من نور الله فاض به على الإنسان ، فظهر فيه في قالب فطرته الخيرة ، التي تحارب الغرائز البهيمية والشهوات المنحطة ، وتقاوم سحر ملاذ الدنيا ، وتدفع إغراء متعها المادية ، كما تطهر النفس من كل ما يمكن أن يتسرب إليها من دنس ، وتخضع حياة الإنسان للقيم الفاضلة ؛ فإن هؤلاء الذين يعصون هذا القانون الخلقي ، ولا يؤمنون بسيادته على النفس ، يعتقدون أن منفعتهم الخاصة يجب أن تكون قانون حياتهم الوحيد ، ويفضلوا أن يتمردوا على فطرتهم الخيرة على

البعيد ... لقد أتعبك حملك من السير ، وملأ نفسك تلهوت به من الناس ...

حدثني أبا الهول : ما هذا الحلم الذي تنسج خيوطه على مهل ؟ أما حان لك أن تستريح ؟ لقد طال حلمك وطال صبري !

بماذا تفكر ؟ أبالله وسمواته وكواكبه ونجومه ، أم بالقرون التي مرت بك ، أم بهذا العالم الفاني ، أم بي ؟ !

حدثني .. ولكن لا ، ابق صامتاً ، فإني أخاف إذا تكلمت أن لا يقال بعد ذلك : هذا (أبو الهول) ... إن صمتك حديث الناس ، وقد لا يكون حديثك حديثهم ، فما يدريك أن تكون الكلمة الأولى التي تنطق بها وبالا عليك ، ودليلاً على أنك لم تكن إلا حجراً .. ابق صامتاً ... إن قوتك في صمتك ... أنت ملك الصمت ، فلا تخلع عرشك بيدك !

ولعلك فقهت معنى الحياة ، فرأيت أن الصمت خير ما فيها ، أنت صخرة اقتطعتها السموات من جبال عظمتها وأمجادها ، فكبرت نفسك حتى أنفت أن يكون اللسان بوقها وترجمانها ورسولها ، وهل يصلح اللسان ، هذا الثرثار الضعيف المزعج ليعبر عن أسرار النفس والطبيعة ؟ هل يقوى على الثبات في ساحة النفس الكبيرة إذا ثار بركانها ؟

انظر إلى الفيلسوف كيف يخرس ساعة يصطدم بالمجهول ، وإلى الجندي كيف يعقل لسانه ساعة يصطدم بالخطر ويصافح الموت ، وإلى الفنان كيف يصمت صمته العميق ساعة يسحره الجمال ، وتحتل الشاعرية أعماق قلبه ... وانظر إلى الفقير الذي شرب ثمالات الكؤوس كيف يعجز عن النطق وفي فمه كل دموعه ، وإلى المؤمن الناسك كيف يقطع لسانه ليتصل بالخالق ، وإلى النسور والأسود كيف تأوي إلى عزلتها وصمتها وتترفع عن الخلائق ...

ابق صامتاً ، أبا الهول ، فقد يكون في صدرك كثير من الحسد والضغينة والرياء والضعف والكبرياء والطمع واللؤم ... وأنا لست بحاجة إلى نفث سمومها ، فيكفيني ما يصاب في طريق من الأفاعي ... يكفيني هذا الإنسان الذي يوزع لسانه الشقاء في العالم ويكشف ما انطوى عليه صدره !

ابق صامتاً ، فلا أدري ما وراء صمتك ... إن كنت إنساناً فزميلك يكفيني ، وإن كنت من جماعة « الأولمب » فابق بين آلهتك ...

ابق صامتاً ، فالصمت أرحب من الكلام وأبلغ لأنه يحويه !

راجي الراعي

أن يستسلموا لها إذا تعارضت مع قائدتهم ، ويقبلون أن يقبروا أهواءهم الخبيثة ما دامت ترضى رغباتهم الجشعة . وبذلك يضحون المجال لهذه الرغبات لأن تعيث فساداً فى النفس ، وتملأها بأنانية بشعة طاغية ، تحبسها فى سجن رهيب من المصالح الخاصة ، لا تسمح لها بأن تخرج من دائرة الذات الضيقة إلى ساحة المجتمع الإنسانى ، بل تبذر فيها بذور الطمع ، وتلقنها فنون إقتراف الخطايا ، فتغرق فى بحر من الآثام ، وتقع فى وهدة الشر ، فتغيب عنها معرفة الله الكامن فى أغوارها على صورة ذلك القانون الذى أبت أن تخضع له ، وتتقيد به .

وبذلك يحجب الإثم والشر عن النفس إدراك قانونها العام ، ويسلبها حب الذات القدرة على تحطيم أغلال الأنانية ، فتحيد عن طريق وحدة الوجود ، وتعجز عن معرفة أن جوهرها يتضمن أكثر من وجودها الفردى ، وتخفق فى الإحساس بالله الذى أودع فاته فى طياتها ، وبالتالى تفشل فى الكشف عن اتحاد الله بسائر الأشياء ، وتخيب فى تحقيق كمالها الروحى ، ولا تتمتع بالحياة فى كنف حقيقة الحياة الأولى ألا وهى حقيقة « وحدة الوجود » .

وخروج الإنسان عن طاعة قانونه الخالق مرده إلى أن الله وإن قيد الإنسان بضرورة الخضوع لهذا القانون ، ترك له حرية تامة فى طاعته أو عصيانه ، كما منحه إرادة حرة لها التصرف فى الشئون الدنيوية ، ولم يلزمه بفعل الخير أو تجنب الشر ، لأن فطرته تسمح له بأن يميز بين الخير والشر ، وتمكنه من أن يسلك طائعاً مختاراً الطريق السوى . لأن فى النفس الإنسانية نوعين من الرغبات : أحدهما خاص والآخر عام . والرغبات الخاصة تجرى وراء المطالب الذاتية ، وتقف عند حد الفوائد الشخصية ، بينما الرغبات العامة مطالبها تتعدى كل ما هو ذاتى ، وتنشد خير كل ما هو كلى مثل الأسرة أو الوطن أو الإنسانية . وإرادة الإنسان يمكنها أن تسير تحت ضغط أى النوعين من الرغبات ، وتملك القدرة على تغليب سيطرة الرغبات العامة على الرغبات الخاصة .

فإن خضع الإنسان لقيادة القوانين الأخلاقية ، وتحكم فى أهوائه وترعاه سار فى طريق الخير ، وإن اتخذ من الإيثار والتضحية سبلا لسعادة الغير ، فهو لا شك ساع فى خدمة أهله ، ومشارك فى إصلاح وطنه ، ومجاهد فى سبيل ترقية الحياة الإنسانية عامة . وإن بذل نفسه ورخيصة من أجل عشيرته أو بلاده ولم يكترث بما يعانيه من حرمان ، فقد عرف كيف يذيب الأنانية ، ويقضى على حب الذات فى نفسه ، وإن آثر على تحقيق خير البشرية ولم يحل دون ذلك ما يقف أمامه من صعوبات ، فإنه يعد لنفسه طريق الاندماج فى الله . وعلى يد هؤلاء الذين فازوا بسرور غير محدود ينبع من الحياة فى حقيقة وحدة الوجود ينال البشر سعادتهم ، ويتخلصون من كل ما ينغص عليهم حياتهم من شر ، وينتشر بينهم الخير .

أما الذى يأبى أن يخضع للقوانين الأخلاقية ، ويركب رأسه ويريد على الدوام أن يستولى على ربح خاص لا يشاركه فيه أحد ، أو يحظى بمزايا لا ينافسه فيها إنسان ، فإنه فضلاً من أنه لن يهتدى إلى حقيقة وحدة الوجود ، ولا بد أن يصطدم برغبات الجماعة ، ويدخل فى حرب مع كل نفع عام عندما يعرقل نفعه الخاص . وذلك يشيع التفرق والتنابذ بين أفراد المجتمع الإنسانى ، وينشر بينهم التكالب على المصالح الذاتية ، بل يحطم ما يربطهم من علاقات محبة وتعاون ، فتنحل أواصر الأسرة ، ويتفكك كيان الوطن ، وينعدم الأمل فى تآلف دول العالم ، ويتقلب النظام الطبيعى فى الحياة إلى فوضى ، فيضع القوى قوانين جائرة يدعى أنه وضعها لتنظيم المجتمع ، بينما هى تستمد أصول تشريعها من أشرار الأنانية ، وتعتمد على القوة والوحشية فى تنفيذها ، وتبتدع أساليب جديدة فى إذلال الإنسان الوديع واستغلال الشعوب المتأخرة

ولكن إذا أمعن فيه ، وصمم على أن لا يحيد عن طريق حب قائدته ، واستكبر أن يطيع أوامر القانون الخلقى ، سيلبث فى صراع عنيف مستمر مع صالح الكل ، يستفحل أمره شيئاً فشيئاً إلى أن يقضى عليه آخر الأمر . وهذا مصير كل فرد يقف فى وجه الجماعة ، ولذلك يجب على الإنسان أن يكبح جماح غرائزه وشهواته التى تلح فى طلب المنافع الخاصة ، وتوهمه بأن هذه المنافع هى غاية حياته ، وتحرضه على أن لا يسلم أعنة النفس للقيم الروحية التى تطلب منه أن يعيش لغيره كما يعيش لنفسه ، وأن يضحى برغباته الشخصية إذا تعارضت مع سعادة النفس الكبرى التى تشمل حياة الإنسانية بأجمعها . والإنسان العاقل هو من يوفق بين الرغبات التى ترضى النفس الفردية وبين رغبة إسعاد المجتمع الإنسانى ، لأن كل من يحاول أن يقف وحده فى وجه قوى المجتمع ، ويرغب فى أن يحصرها فى نطاق قائدته مصيره

إلى الدمار . إن سجل التاريخ الإنسانى لحافل بالثورات العظمى ، التى تشهد بأن الجزء حينما يحتقر الكل ، وينشد لنفسه منافع خاصة من دون الجماعة ، ويسير فى طريق منفصل عن طريقهم ، لا بد أن تثور ضده القوى الكلية ، وتشن عليه حرباً لا هوادة فيها حتى ترغمه على أن يسلك طريقها العام صاغراً .

يتضح مما تقدم أن نار الشر تندلع من شرر عصيان الأوامر الأخلاقية التى تنذر بأن الأنانية ستسود حياة الفرد ، وأن الإرادة ستسكن لسيطرة الشهوات والغرائز ، التى تفسد الناحية الخيرة فى النفس ، وتتلف مقوماتها الروحية وتدفعها فى طريق الخطايا والآثام ، وتوهمها بأن ذاتها هى غايتها الوحيدة فى الحياة ، وأن لا عمل لها إلا الجرى وراء غنمها الشخصى . ومثل هذه الأهواء الشريرة تخيم على البصيرة فتحجب عن الروح إدراك الله المستقر فى قرارة النفس على صورة القانون الخلقى ، فيضل الإنسان فى غياهب الشر ، ويبعد عن طريق وحدة الوجود . كما تلائم هذه الأهواء الفردية الحياة العامة وتعرقل تقدم المجتمع الإنسانى ، وتسوق المتأثر بها إلى خوض غمار حرب مع قوة العواطف الخيرة ، أو يصطدم بالمصالح العامة ، لأنها تؤذى أغلبية القوم وتضر بمنافعهم ، وتوقع عليهم ظلماً وجوراً لا تصبر عليه النفوس طويلاً ، وسريعاً ما تتألب عليه وتحطمه ، وتضع الحق فى نصابه ، وتسلب من الظالم أداة ظلمه ، وترده إلى طريق الصواب ، وتجبره على أن يفعل الخير للجميع .

فرغبة الشر رغبة ذاتية عرضية ، لا تدوم إلا بدوام سيادة الأنانية على النفس ، وتزول عند مثول رغبة الخير التى تنسجم مع القانون الأخلاقى . أما الشر فى حد ذاته فحقيقته سلبية غير ثابتة ، ولا ينفك يتحول فى مظهره إلى أن يصير فى آخر الأمر خيراً يعم الجميع ، لصراعه الذى لا ينقطع مع قوى الحق التى تنشد حقيقة وحدة الوجود . ومثل الشر فى تغيره هذا مثل الفلسفة الفكرية التى يأخذ العلم فى تنقيحها وتصحيحها شيئاً فشيئاً إلى أن تصير حقيقة ثابتة .

بينما رغبة الخير يقويها فى النفس الإيمان العميق بأن الله أودع ذاته الإنسان على صورة القانون الخلقى ، الذى يجب أن تتمسك به كل عاقل ، ويرضى رضاء تاماً أن يخضع لتعليماته وإشاراته . والخير قبس من لدن الله ينير سبيل الروح نحو وحدة النفس الإنسانية ، ويهديها إلى الكشف عن أوجه الله المختلفة فى أعماق الكون ، فمن رغب الخير سار فى طريق وحدة الوجود واتبع هدى رغبة كلية إيجابية تتمشى مع أغراض الحياة العامة وتدفعه دفعاً حثيثاً نحو الرقى والسعادة ، وتحصن بقوة لا ترهب نيران الشر المفترسة ، وتسحق الأنانية فى النفس . إن تطور الحضارات ، ودأب الإنسان المتواصل فى الوصول إلى أرفع درجات الكمال ، لأوضح دليل على أن الخير يتغلب على الشر ، وأن الغيرية تنازع الأنانية ، وأن الوحدة الإنسانية تبتلع كل وحدة فردية ، وأن العالم فى طريقه نحو وحدة الوجود .

فليس هناك ما يدعو للاعتقاد فى أن الحياة شر فى شر ، أو تسير من الشر إلى الشر ، ولا خير فيها على الإطلاق ، ولن ينجو فيها أحد من سوء . لأن الشر فوق أنه حقيقة سلبية متغيرة غير ثابتة على الحال ومآلها للزوال ، لا يمكنه أن يعوق تدفق تيار الحياة أو يعرقل تحقيق مثلها العليا فى الخير ، أو يفتت من عزم الإنسانية الوطيد على الفوز بحقيقة وحدة الوجود عن طريق التمسك بالقانون الخلقى الذى هو إحدى آيات الله التى تكمن فى شتى الموجودات . وأن ما بلغه الانسان من تمدن ليشهد على أن الشر ليس له من القوة الإيجابية ما للخير ، ولا يقدر أن ينضب ينابيع الخير التى فاض بها الله على الحياة الانسانية ، بل إن ما فى الوجود من شر يلاحظ أنه يتلاشى تدريجيا مع تقدم الحياة المستمر ، بينما ما يتحقق من خير تبقى أصوله ثابتة فى أعماق الحياة ، ويبدو أثرها فى مختلف نواحى النشاط الانسانى . فالحياة تتحرك دائماً نحو الخير متخذة منه وسيلة لتثبيت أركان الوحدة الانسانية ، التى عن طريقها تسير البشرية خطوات نحو وحدة الوجود .

أما ذلك الشر الذى ينتشر فى الكون ، ويقاسى منه البشر كافة أصناف الآلام ، ليس دليلا على أن الحياة فى أصلها تجلب الشر ، وإنما هو علامة على أن الحياة الإنسانية لم تبلغ بعد كمالها الأقصى الذى يجب أن تبلغه ، وأنه ما زال أمامها مراحل شاقة من التضحية والإيثار عليها أن تبذلها ، حتى تصير حقيقة وحدة الوجود حقيقة حية فى القلوب ، فينعم الجميع بالراحة والسعادة والسيادة والأمن وينجون من ظلام الشر الذى يثير القلق والخوف والحزن فى النفوس .

عبد العزيز محمد الزكى
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية